من تحت عقب الباب: قراءة في نبل وبراءة سرحان عبد البصير وانكسارهما

تقديم: صدمة البراءة في ساحة العدالة

يقف «سرحان عبد البصير» في منتصف قاعة المحكمة ببدلته المتواضعة ونظراته الزائغة، يحاول الاستيعاب وتفادي بطش العالم الخارجي الذي اقتحم عزلته فجأة. يسأله القاضي بصوت صارم وحاسم عن علاقته بجارته الراحلة «عنايات»، وعما إذا كان قد تواصل معها بأي شكل من الأشكال. يجيب سرحان بعفوية متناهية وببراءة تثير ضحك القاعة: إنه كان يكتب ملاحظاته على ورقة صغيرة، ثم يدفع بها بحذر شديد من تحت «عقب الباب».

يبدو المشهد في ظاهره مفارقة كوميدية صارخة صاغها الفنان عادل إمام والكاتب ببراعة؛ حيث تصطدم آليات التحقيق الجنائي الجافة والتساؤلات القضائية المباشرة بتصرفٍ رقيق وخجول إلى أقصى حد. غير أن التمعن في هذا الفعل البسيط يحيلنا إلى تفكيك طبقات واحدة من أكثر الشخصيات الدرامية عمقاً وتعبيراً عن أزمة «الإنسان النبيل» في مواجهة البيئة المادية.

أولاً: منطق «الورقة تحت الباب».. الذكاء الأخلاقي المستتر

قد يتبادر إلى الذهن للوهلة الأولى أن تفكير سرحان بإدخال الورقة من تحت عقَب الباب هو مجرد سذاجة مفرطة أو جهل بآليات التواصل البشري المباشر، غير أن القراءة المتأنية للدافع تكشف عن «ذكاء إنساني رفيع» وحسٍّ أخلاقي نادراً ما نشهده:

1. **احترام الحدود وحماية الخصوصية:**

يعلم سرحان بطبيعته الفطرية حساسيات بيئته ومجتمعه؛ فالوقوف المطول أمام شقة جارة تعيش لوحدها أو طرق بابها قد يفتح أبواباً للقيل والقال، ويجلب الشبهات أو الإحراج. كانت الورقة وسيلته للتواصل مع الحفاظ على مسافة آمنة تحترم الخصوصية.

2. **الافتراض الحسن في نضج الآخر:**

لم يرغب سرحان في ممارسة سلطة أو فرض أستاذية مواجهة؛ بل تعامل مع جارته بأسلوب «من العقل إلى العقل». لقد افترض فيها القدرة الكافية على قراءة الملاحظة، واستيعاب مقصدها النبيل، وتعديل سلوكها بذاتية وكرامة ودون إحراج المواجهة على درج البناية أو دونما ادخال طرف ثالث (كحارس البناء مثلا) حفاظا على الجيرة واحتراما للعلاقة.

3. **ضمان وصول الرسالة دون اقتحام:**

كان سرحان يجهل إن كانت الجارة متواجدة في شقتها أم لا؛ فكانت الورقة الوسيلة الأضمن لضمان وصول التنبيه فور عودتها أو في الوقت الذي يناسبها، دون أن يزعج عزلتها.

ثانياً: الهروب من واقع البيئة المادية

لم تكن سذاجة سرحان عبد البصير خللاً عقلياً أو عجزاً فكرياً، بل كانت **وليدة طينته النقية وعزلته الاختيارية**. يعيش سرحان ويعمل في عالم برامج الأطفال؛ وهو عالم محكوم بخصائص ناصعة: القيم فيه واضحة، والشر يُهزم دائماً بحلول نهاية الفقرة.

لقد بنى سرحان لنفسه درعاً من البراءة ليعزل ذاته عن واقع محيطٍ تحكمه المصالح التجارية والنفاق الاجتماعي. وعندما أُقحم فجأة في قضية قتل واكتشف أن عالم الكبار مليء بالتعقيدات والدماء والمصالح المتقاطعة، بدت أدواته الأخلاقية النبيلة – كالورقة المهذبة – وكأنها لغة غريبة لا يفهمها منطق المحكمة ولا استجوابات القضاة.

لقد أثبتت البيئة القاسية أن التصرف النبيل والمؤدب لا يُفسَّر فيها بصفته فضيلة، بل يُنظر إليه بريبة، أو يُتخذ موضعاً للسخرية والاستخفاف.

ثالثاً: «الواد المخلص».. قناع النجاة الأخير

تصل المسرحية إلى ذروتها التراجيدية خلف قشرتها الكوميدية عندما يعود سرحان إلى شقته في نهاية المطاف. لم يعد ذلك الرجل الهادئ الخجول بل ظهر صاخباً، يتبنى لغة «الواد المخلص»، ويتعامل بحمية وشراسة مع كل من يحاول الاقتراب أو الاقتحام.

هل كان هذا تحولاً أصيلاً أو مجارات لبؤس الواقع؟

في الحقيقة، لم يتحول سرحان إلى شخص شرير، بل ارتدى **«قناعاً دفاعياً اضطرارياً»**. لقد علّمته تجربة المحكمة والمواجهة مع القتلة أن لسانه العفيف وحرصه على الحدود لن يحمياه في مجتمع لا يعترف إلا بالصوت العالي والقوة الداهمة.

تكمن المأساة المرة في أن المجتمع لم ينتبه الى سرحان عندما كان سيّد الملاحظات المهذبة والإنسان الوديع؛ ولكنه بدأ يحسب له ألف حساب عندما صرخ واستعرض مظاهر الفتونة!

خاتمة: موت البراءة

إن عودة سرحان إلى شقته وتحوله الى «الواد المخلص» ليست انتصاراً، بل هي إعلان درامي عن **«وفاة براءة سرحان عبد البصير»**. لقد انكسر الرجل الذي كان يرى العالم بنقاء طفولي، واضطر لتشديد أسواره وحماية شقته وبابه بأساليب البيئة التي طالما هرب منها.

تظل «الورقة من تحت عقب الباب» رمزا نادراً للإنسان النبيل الذي حاول أن يخاطب العالم بأخلاقه الراقية، قبل أن يجبره العالم على أن يتحدث لغته القاسية كي يستطيع فقط... أن يستمر في الحياة.